جامع السلطان حسن

بقلم
حسن عبد الوهاب
مدير دار الآثار العربية

يعتقد غالب الناس ان عالم الآثار ليس الا مجيباً خاصاً تستمد منه التواريخ والمقاييس وأسماء الاعلام في دقة عجيبة . ولكن ثمة بعض المبالغة من غير شك في اعتبار هذه المعلومات أهم ما في جعبة عالم الآثار ، وانما هي أدوات ضرورية لا غنى عنها ومثلها كمثل ستائر المسرح وما اليها . وقد كتب أحد رجال المجمع العلمي الفرنسي المعروفين يقدم اللاذع « ان السياح كالبوم لا يلازمون غير الخرائب والبلاد الميتة » . فلنشكره على انه لم يقصد علماء الآثار بهذا الكلام . فالواقع ان المستندات الاثرية والحفريات العلمية ليست غرضاً في ذاتها وانما هي تضاعف لنا أسباب الولع بالجمال وتبعثنا على تحبيبه الى قلوب الناس

ان الطريق التي سلكها عالم الآثار وان كانت موازية للطريق التي سار عليها المؤرخ الا انا نلاحظ أحياناً أن كتب التاريخ لا توقفنا من حياة الامة الا على معلومات مشوهة جداً بينما المظاهر الفنية تسمح لنا بتكوين فكرة عنها أشد انطباقاً على الواقع وأكثر صدقاً

وكما ان قراءة كتاب نفيس في وصف اقليم ما تبعث في قلوبنا رغبة شديدة وتغرينا بزيارة ذلك الاقليم لاجتلاء محاسنه ، فكذلك الاعجاب بعمل فني يهيء لنا أسباب تكوين فكرة صحيحة عن البيئة التاريخية التي ولد فيها ذلك العمل الفني وعن مصدر وحي المبدع الذي صوره وأخرجه الى حيز الوجود

وهل ثمة أجمل وأبهى من مسجد السلطان حسن في [illegible] انه لا يدع آثار القاهرة وأكثرها تجانساً وتماسكاً كلاً ووحدة ، وأجدرها أن يقوم بجانب تلك الآثار المدهشة التي خلفتها مدينة الفراعنة . أما الظروف التاريخية المحزنة التي شيد فيها فهي كفيلة بأن تزيد عاطفتنا وتعمق أشواقنا وذلك على الرغم مما فيها من فارقات محير الالباب . والحق انه ليس من الهين ان نصدر حكماً على عصر سلاطين المماليك قد لا نستطيع ان نكتب

(١) نقله الى العربية محمد وهبي احد خريجي معهد الآثار

تاريخهم دون ان يكون للعاطفة دخل في الموضوع . ومرد السبب في ذلك الى المصادر العربية فالمقريزي في العصر الوسيط والجبرتي في العصر الحديث كتبهما مليئة بالمطاعن والمثالب التي لها في بعض الاحيان نصيب من الصحة . والتاريخ لا يمكن ان يكتب مجرداً عن الوقائع كالمسائل الحسابية وانما يجب ان يدرس في علاقته بجماعة او عدة جماعات انسانية . ومن درس المسائل السياسية الداخلية وحدها في مصر في ذلك العصر لا بدّ واجد فيها من المآخذ والمثالب ما لا بد من وقوعه . فالمماليك كما يقول المقريزي كانوا يحلون بالامن ويهاجمون السكان ويذبحونهم وينهبون أموالهم ويسبون نساءهم وأولادهم دون ان يستطيع كائن من كان ان يقفهم عند حدهم وقد كتب غيره يشرح ما كان في نفوس كبار الضباط من أطماع أساسها المصالح الشخصية وحدها ويدلل على جهلهم وضلالهم وفساد خلقهم وان أولئك الرقيق لم يؤتوا من الطيبة ولا من الرحمة مثقال ذرة

غير ان هذا النقد وان كان صواباً فاننا نساء حينما نتأمل الاعمال الفنية التي ابتدعها أولئك الحكام الذين أخضعوا مصر لحكم فردي لا يعرف هوادة ولا رحمة . وانك لواجد في القاهرة حقاً أحجار البناء ناطقة تشدو بعظمة الماضي . واننا لا نفتأ نبحث بأنفسنا في الازقة الضيقة عن مسجد بسيط فنتأمله بأعيننا وكأن جماله قد استحال الى نغمات رنيقة في آذاننا . وعلى طول الطريق بين الجامع الازهر وسور القاهرة الشمالي سلسلة من الجوامع وكأنها نغمات منسجمة متآلفة حتى اذا ما وصلت الى آخرها وجدت أثراً عظيماً . ولكن ما أفخم وما أعظم ذلك النشيد المنبعث من ابراج جامع السلطان حسن التي تتحدى النظر وتحول دون امتداده !

واذا قلبنا الصفحات الجيدة التي سطرها سلاطين مصر في سجل السياسة اصطفينا السلطان حسن وتجلى لنا رمزاً جديراً بالذكر يعبر أصدق تعبير عن نظام المماليك

فالسلطان حسن هو الصورة الحية المطبوعة لذلك النظام الامبراطوري الاسلامي في العصور الوسطى . وهي صورة تمثل بقوة عناصرها الارادة الحديدية والشهامة الخالدة التي امتاز بها أكثر سلاطين المماليك

وانك طعن المؤرخون الغرب ذلك النظام بن حين لا يتصورون وقائعه في سياق واقع على طريقة التأليف العزيزة عليهم فهم مقرون بشطر القرون سنين وتجزيء الكيانات تجزيئاً عماده سرد تاريخ الافراد بدون رابطة تربط الجزئيات ولا وحدة تنظمها

وعلى كل حال فان فترة حكم السلطان حسن ، أو على الاصح فترة حكمه ، اذا انها عدت مرة بين أشد فترات التاريخ هياجاً واضطراباً . ففي المدة من شهر يونيو ١٣٤١ الى شهر ديسمبر ١٣٤٧ الذي هو تاريخ تولية السلطان حسن العرش ، توفي أربعة الملك سنة سلاطين

وجد أحدهم ميتاً في فراشه وقتل الثاني لحسن حظه وقتل الاربعة الآخرون . ثم حكم السلطان حسن مدة ثلاث سنوات من ١٣٤٧ الى أغسطس ١٣٥١ ثم من أكتوبر ١٣٥٤ الى مارس ١٣٦١ ثم قتل وهو لم يتجاوز السابعة والعشرين وكانت حياته زمناً مليئاً بالمؤامرات والثورات التي لا تختلف عما حدث قبل ثورته

فأما مدة حكمه الاولى فقد اقتصر فيها ذلك الطاغون الاسود المرابع من سنة ١٣٤٨ الى ١٣٤٩ واستبد في أمور الحكم بها ، وفي خضم الفترة الثانية كان الضباط المماليك لا ينفكون عن اثارة الشغب والاخلال بالنظام . واذا تذكرنا ان الامراء شيخون وصرغتمش المشهورين اذ خلفا من الآثار ما نراه اليوم على مقربة من جامع السلطان حسن وقد أقرّ المؤرخون بما كان للسلطان من مزايا خلقية كالشجاعة والكرم والورع وفسروا الورع بانه على كتاب في الدين بضعاً وعشرين مجلداً

وعلق أبيرس Ibers على تلك الحوادث قائلاً :

« اننا لا نفهم في سهولة ، اذا نظرنا الى تلك الايام العصيبة ، كيف تمكن السلطان حسن من توفير الوسيلة والمال اللازمين لاقامة جامع يبعث على العجب ألفهم وأكمل بناء في العمارة العربية ، فقد كانت الحقول مجدبة والبيوت من الحطام خالية والطرق لا يجد ماء ودولاب الصناعة واقفاً وأسعار الملح هائجة »

أمر السلطان حسن في الفترة الثانية من حكمه سنة ١٣٥٦ بالبدء في بناء جامعه الذي لم يكمل الا سنة ١٣٦٣ أي بعد قتله بسنتين . وقد تحمس كتاب العصر الوسطى من العرب في وصف ذلك الاثر الخالد . فقال المقريزي [illegible] وقال ابن اياس [illegible] وقال ابن كثير يصف [illegible] بضعاً وعشرين سنة ثم [illegible] وكاد الرأس يستوفي [illegible] سلطان مصر غير قادر على اكمال بناء شيء [illegible] التصميم يكون [illegible] فلما كملت الأبنية [illegible] وقد دهش الكتّاب العرب [illegible] فسجلوا حيرتهم إذ قالوا [illegible] من انحاء الدنيا ولم يكن [illegible] النظير وان يستوحوا فيه أعظم بناء في العالم كله ألا وهو [illegible] ذلك الاثر الذي [illegible] ذلك المهارة التي

أقامهُ لئلا يخطط بناء آخر على مثاله . ولا نقف عند هذه الخرافة طويلاً فهي لاصقة بمباني أخرى كجامع قجماس

قال هرتز ان مساحة جامع السلطان حسن عظيمة فأطول الاضلاع ١٥٠ متراً وعرضها ٦٨ متراً والمساحة الكلية لا تقل عن ٧٩٠٦ أمتار مربعة وارتفاعه عند بابه ٧٠و٣٧ متر. وحيطانه الضخمة المكسوة من الخارج بالاحجار المنحوتة قائمة على أرض صخرية تهبط هبوطاً دائماً من القلعة نحو المدينة ولذا فقد اضطروا الى إقامة أسس متينة شيد عليها الجامع ...

وكان هذا الجامع مدرسة دينية وقد نشأ هذا النظام في بلاد ايران على يد الدولة السلجوقية التي عنيت بنوع من التعليم مقصود به محاربة الانقسامات والمذاهب العقلية التي تجاوزت الحدود فالمدرسة وهي المعهد الرسمي لدين الدولة صارت نظاماً سياسيًّا وحصناً للدين كما أسماها كاتب عربي ووضعت البرامج الجديدة على ضوء المبادىء التي أتى بها الامام الغزالي الشهير فتوطدت بها دعائم السنة الصحيحة . ثم انتشرت المدرسة غرباً من بلاد ايران الى سوريا فمصر وفيها تكونت العقول التي عملت على مقاومة الصليبيين والمغول ومن أثرها السياسي اتقاذ الاسلام وتكوين وحدة مذهبية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

***

والى القارىء قصة عجيبة نصها مؤرخ عربي قال : زار السلطان سليم الاول عند غزوه مصر سنة ١٥١٧ بعض آثار القاهرة فأعجب اعجاباً بجامع المؤيد الجديد بالملوك على حد عبارته ثم دخل جامع الغوري فانتقد البناء وقال في دعابة انهُ يكاد يكون منجزاً ولكن لما رأى جامع السلطان حسن أدهشهُ البناء العظيم، وهو العارف بأساليب العمارة فقال انهُ لحصن متين حقًّا . وحسب صديد الجامع مكافأة وحسن جزاء هذه العبارة التي تنطق بالحق

والارض التي اختيرت لاقامة البناء واقعة تجاه القصر الحصين الذي يشرف على مدينة القاهرة وقد عرف المهارتي كيف يستوحي من هذا الموقع تصميم البناء وكأن الفكر كان متجهاً الى تأسيس بناء يتحدى القلعة بأسوارها الشداخية في قوة فأقام المعماري بناء شامخاً . وترى القلعة تستقبل وكأنها تحتمل الهجوم . وما الجامع فيطل ويشمخ في هدوء وكبرياء وكأنه يريد بالقلعة بطشاً . وهو في مكانه ارز بروزاً يفصل ما بينه وبين القلعة منافسته من ساحة فسيحة

وبناؤه ، شبيه من مدرسة دينية لها تعاليم سياسية متصلة بمذهب الحكومة السني ، وبناء حربي وحصن دفاعي واضحة على اعلانه للحرب دون هوادة ولا رحمة على الزندقة والخلافات المذهبية وبرج المؤذن الغربي الذي صممهُ ان يكون بناء ضخماً قائماً أمام قلعة القاهرة ومدرسة جامعية تجمع بين الحرمين جمعاً عجيباً قد بعثه على القلعة الحربية وما كان [illegible] من ثروة

ثقافية وأضاف التبوغ المباري الى قوة التعاليم السنية قوة أخرى عبر عنها بأسلوب البناء أدق تعبير. وقد يتساءل المرء اذا ما قرأ تفاصيل التاريخ المعاصر ألم تكن نية الفنان متجهة الى القاء درس خالد في النظام والسلطة. ألسنا نرى فيه نقداً عالياً لسوء النظام والفوضى الاليمة التي كانت منتشرة في شوارع القاهرة والانقلابات السياسية الشديدة التي تبدو لنا خلال السطور كأنها دوامة شديدة الخطر ؟ يعلو الجامع علوًّا وكأنهُ الرتيب الجبار اليقظ وكأنهُ مثال الرزانة والهدوء ! وليس ثمة اي أثر اسلامي آخر أدل على هـذا الغرض وأبلغ في الدلالة. والفنان في الحقيقة كان صريحاً كل الصراحة بل كان صريحاً الى حد الصرامة فقد ألقى بأسلوب البطارقة العظيمة درساً قاسياً في الدأب والمثابرة على ذلك السلطان الذي لم يكن في مكنته ان يثبت على العرش وكان الموت الزؤام مصيره المحتوم بل لا يزال ذلك البناء حتى اليوم يتجلى حكمه على فساد الخلق. وسنرى كيف ظل ثابتاً يقاوم شرور الرجال وآثامهم

وقد اكتسب جامع السلطان حسن خلال الازمات السياسية قيمة لا شك فيها تدعونا الى التفكير في شأنه. وهو ليس كبقية الآثار الاسلامية التي تمتاز بالرشاقة وتغشاها مسحة من الحزن الهادئ وانما هو العمل الفني المثالي للتعبير عن علاقة المسلم بخالقه وكأن الانسان لم يرد أن يلتمس به الرعاية الالهية فلم يشيد بناء متواضعاً بل شيد هذا العمل الجبار للاعلان عن وحدانية الله وجبروته

ولعلو مأذنته علوًّا شاهقاً فضلاً عن ضخامتها وكأنها بهذه الضخامة تؤكد متانتها وان ليس في الامكان ان ينالها الاذى. على ان امكان قيام هذا البناء الضخم البديع في ذلك العصر الحافل بالحروب والقلاقل يذكرنا بالصور الهولندية في القرن السابع عشر وازدهارها على الرغم من الحروب الاهلية. وقد اشار الى ذلك الكاتب فرومنتان فقال « اذا تخيل المرء ما كانت عليه البلاد في ذلك الوقت العصيب لاندهش ايما دهشة إذ لا يجد في تلك الصور ما يعبر عن عصرها أدنى تعبير. ولم تكن الحرب في البر والبحر ولا الحرب الاهلية اي صدى او تأثير في صور الفنانين الذين ينتمون الى تلك المدرسة الكبيرة الهادئة. ولم تكن اصوات القنابل المدوية التي لم ينقطع دويها حتى ... ان هؤلاء بحدة اي تأثير فيما صوروه وابدعوه »

***

كان تصميم المدرسة الدينية في مصر يرمي الى تهيئة المكان ليكون صالحاً من جهة لتعليم المذاهب السنية الاربعة فضلاً عن اقامة شعائر الدين في الجزء الاوسط من البناء كان يقوم الجامع للفرائض الدينية. اما الزوايا الاربع كانت تشاد مساكن للاساتذة والطلاب على قدر المكان المخصص ذلك. على هذا التصميم وجود فراغ حول الصحن الاوسط على هيئة صليب داخل

فخصص الايوانات الاربعة لأبناء المذاهب الاربعة وجعل التصميم العام يسير على نسق يشابه الى درجة كبيرة المسجد الذي سبقه بناؤه في ايوان القبلة ومدرسة ... الا ان مئذنة السلطان حسن مزدوجة فقد رفع من قيمة العمل المعماري بكون صحن صغيرا نسبيا حتى لا تتشتت العين ولا يرتد البصر عنها كليلاً

ان تصميم البناء على وجه العموم فيه نظام واتساق فقد رأينا كيف ان المعماري رأى ضرورة ابعاد التعليم الديني الحكومي عن الضوضاء بإقامة اسوار متينة . كانت ابعاد الارض غير مستقيمة في احدى جهاتها فاقام المعماري الباب في هذه الجهة وليست هذه الحالة فريدة في نوعها وان كان الفنان الاسلامي يتخلص من هذا الاعتراف بطرق عديدة الا وهي انها تكون الاعتراضات في البناء مكشوفة ولكن المعماري في هذا الجامع صمم باتين مزدوجين وادخل صحن قاعدث بذلك محورين المحور الاول متجه نحو مكة ويشمل ايوان القبلة والقبر . وراعى المعماري في المدخل تشييد عدة مبان مستقلة غير ان جزؤه الاوسط عبارة عن ردهة مفتوحة من احد جانبيها بدلاً من تصميم مدخل تجاه الباب العمومي مباشرة

وكان كثير من المباني الدينية في القرن الرابع عشر مساجد وخانقاه في الوقت نفسه فكان المسجد يشتمل على قبر مؤسس البناء . على ان اختيار الركن الذي يضم قبر السلطان حسن كان اختياراً تحتمت فيه عبقرية المعماري ، وقد ساعدته الظروف اذ ان توجيه المسجد نحو مكة جعل حائط ايوان القبلة قائماً تجاه القاهرة بانضباط وعلى ذلك كان القبر قائماً هناك وكان من المعتقد ان يرقد السلطان مقر ملكه وهو راقد في قبره رقدته الابدية ، وكان فكرة المعماري ان يكون السلطان في مكانه الذي منه في حياته اذ انه حسب تلك التوجيهات يرى من نافذة القبة ويشرف على تصميم قواعد المذنبين اللتين شيطان بالقرب منه كما يرى من المظلة الخ ...

ولكل برج جوانب بين سطوحه وكأنها زوايا بروزة ذات حدود مربعة وكان الغرض منها صيانة الابراج من فعل المقذوفات الحجرية

وفي سبيل هذا التصميم البديع استطاع المعماري باساليب معمارية عديدة ان يقيم من مدخل وصحن وايوان قبلة ومدرسة وتربة

فاذن لم يأخذ المبنى منه حدوده المتراصة وحيطانه الخارجية الضخمة دون الحاجة بذلك الى أبنية مصر الرشيقة في القرن الخامس عشر . ولما لم يكن الغرض الاصلي انشاء حصن فقد دخلت الرقة والجمال في تقدير البناء فهناك اذن عاملان أوحيا الى المعماري الاسلوب وهما الضخامة والرقة ووجه المعماري همه الى ابراز هاتين الميزتين فاكتسب ابنيته هذه الروعة التي هي الامكان

الزخرفية التي لا اسراف فيها كما تراها ايضاً في بعض السطوح الخالية من الزخارف . وقد روعي في الوجهة ان تبرز هذه رصانة بروزاً يضفي عليها العظمة

اما الكورنيش الذي يتوج الحيطان فيكوّن من عدة طبقات كخلايا النحل عظيمة المظهر ومن ميزاتها ايضاً ان تخدع البصر فتحسب الحيطان أعلى مما هي على حقيقتها . ولم يكن المعماري يقصد بالواجهة التي تقابل قلعة القاهرة أن تسيطر على السور بل كان همه توطيد البناء في الارض وتدعيم اساسه واكتفى بما بينهُ وبين القلعة من ميدان فسيح ولكن في الجهات الاخرى حيث لا ساحة ولا ميدان يستطيع المرء ان يشمل البناء بنظرة واحدة ، كان همّ المعماري ان يحس الناظر احساساً من نوع آخر فابتكر اسلوباً جديداً للوصول الى غرضه اذ أحدث في الحيطان تجاويف عمودية طويلة ضيقة ركب فيها النوافذ للانارة اللازمة فبهر وأدهش . ثم ان الكورنيش الضخم الذي يطل على الناظر وكأنهُ يريد ان ينقض وتلك التجاويف على ما بينها من تباين وتفاوت كل ذلك أحدث الاثر المطلوب في نفس الناظر اذ بدت له الحيطان أعلى مما هي عليه في الواقع مرتين

اما المدخل الرئيسي فعليهِ سماء النبل والفخامة وفتحته التي تتوجها الزخارف المعمارية التي تشبه خلايا النحل تتجلى فيها العظمة وكأن هذا الباب الجبار يقوم بدور الساهر على هذه المدينة التي تبلغ من السر الشيء التام ويحدث أثراً هو أثر العزة والكبرياء في هدوء واطمئنان

وتسير حين تدخل المسجد في دهليز يكتنفهُ الغموض وهو بناء كامل في حدود التصميم العام وله قبة ومحل بزخارف كخلايا النحل غير ظاهرة في الظلام الذي ينتشر فيها . ويزداد الغموض اذ تسير في دهليز آخر ضيق طوله ثلاثون متراً ينحني مرتين وهو مغبر فيهِ فتحات ترى السماء خلالها على بعد بين حائطين مقتربين عاليين ثم تسير في طريقك فلا ترى غير السماء بين حيطان ضخمة شاهقة أمثلها مكفهرة . كتل حجرية عظيمة حتى تصل الى باب صغير تنفذ منهُ الى الصحن الاوسط فيرتفع البناء فجأة عن منظر مكان يدور في خلدك فيحيرك النور ويبهرك فلا مكان ينتشر فيهِ الظلام وهو نظام اتساع ايوان القبلة وانك وانت بين حيطان اربعة عالية بيضاء ناصعة لترى السماء الزرقاء وقد اشتدت زرقتها هادئة هدوءاً فكأن السماء خيال . ثم يبهرك النور العظيم ويستولي عليك احساس قوي يشل فيك لحظة قدرة تحليل الناظر التي [illegible] وسرعان ما تأخذ عيناك رأس منارة ضخمة

[illegible] كانت المآذن الطويلة في الماضي البعيد عزيزة [illegible] لا سبيل الى مقاومتها في هذا البلد حيث الاهرامات وآثار الكرنك المتناثرة يمدو جامع السلطان حسن [illegible] ويغلب ، ثم وقف ذلك الصحن يحس سره بالضعف والرهبة أمام تلك الجوامع [illegible] شيدتهُ يد الانسان ورفعتهُ عالياً ليكون بيتاً لله تنبعث منهُ الصلاة

والدعاء الى العزة الالهية وانما هو كتلة عملت فيها الايدي واقتطعت احجاره وأعدّت لاخراج تلك الايوانات الاربعة المحيطة بالصحن الاوسط

وإذا ما سرت نحو يوان القبلة ثم جزته وصعدت الى الجانب الايمن واليسار بين يوسلان الى تربة السلطان ويشملك الظلام في ذلك المكان لكثرة الظلام سيما لبعث جو ديني حاديء كان مقرراً ان يكتنف الى الابد حيان الماضي حين تتنفس وتتذكر تلك الحياة المضطربة التي عاشها ذلك السلطان الباسل . ونفشا ما يرجه بين حين وآخر ان تذكر ان القبر خلو من حيّاته فقد افتقدوه بعد ان قتل فلم يجدوه

حقاً ان تجامع السلطان حسن أثر اسلامي من القرن الرابع عشر وهو الطراز المعماري الذي انتشر في مصر وسورية ، ولم تكن المدرسة الدينية مظاهراً مبتكراً في العمارة الاسلامية في ذلك العصر وهذا الجامع لا يخرج في تصميمه عن الاسلوب العادي خروجاً ظاهراً فاذا حللنا بعض التفاصيل المعمارية تحليلاً دقيقاً وجدنا عناصر أجنبية ومستنبطة في سهولة تتبع الاشكال الزخرفية وقابليتها للتطور . والحق ان المرء ليحس بالضعف اذا ما حاول الوقوف على اصول هذا العمل العظيم فهو مطبوع بالعبقرية التي استطاعت ان تمثل عدة اساليب معمارية معروفة في ذلك الوقت فصاغتها وصبتها في قالب جديد . فهو وهذا الجامع سيظل قائماً بذاته خارجاً عن دائرة المألوف . ولا يمكن ان نعقد بينه وبين الآثار المعاصرة له مقارنة صحيحة لان ابتكار الذي دفعه للعمل جدّاً فهو نسيج وحده وكان المعماريين الذين أتوا بعده كانوا يخشون ان يتطاولوا فتونه . وكان الفن الاسلامي في ذلك العصر قد تحوّل عن الفن القديم وتضمّن تراكيب جديدة فنجد اننا معشر الغربيين مضطرين الى بذل الجهد لتفهم الفن الشرقي وتذوقه

***

ان جامع السلطان حسن ليضارع الاعمال العظيمة التي ابتدعتها العبقريات الخلاقة وبعض الاعمال الخارقة للعادة وهو وان كان اقل شهرة من غيره الا انه قد يكون اعز شيء من مصر الجرداء بمرتفعاتها

والفن الاسلامي وان بدا عليه الأثر الواضح الذي [illegible] السلطان حسن هو رمز القوة الهادئة المفكرة . وشتان بينه وبين تلك التحف الفنية الخيّة الثقيلة القيمة معلاً التي تمثل خاصة الفن الاسباني المراكشي

وفي مصر نفسها عندما اخذ اسلوب فن سلاطين المماليك في الميل ميلاً طبيعيًا نحو كل ما هو مرّاتي جذّاب شاهدنا تفتح زهرة فن جديد ورأينا تحفاً بديعة رشيقاً رقيقاً جميلاً تحفة بالست على مراتب الدقة الفنية ومطبوعة بطابع الفنان المخلص في عمله المقبل على صنعه

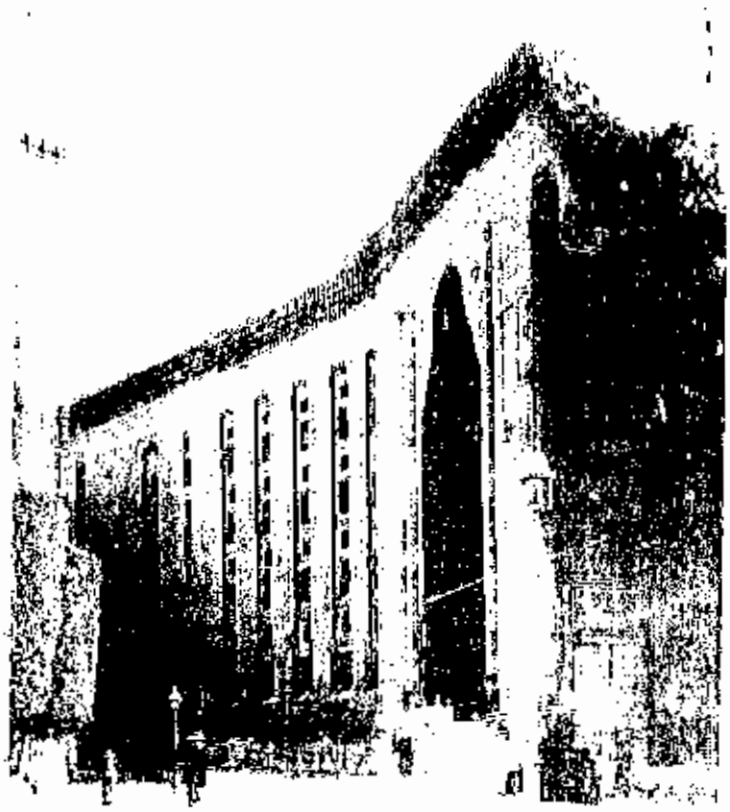

جامع السلطان - س من جانب المدخل العام

الضريح في جامع السلطان حسن

ونحن وان كنا نعجب بالزخارف العربية ذات الاشكال الرقيقة غير اننا نلحظ عليها اسلوب الصنعة العادية المتكررة التي تنتج عدداً عظيماً من التحف تحوز رضاء الشعب وتغمر بها الاسواق ولكننا اذ نشاهد جامع السلطان حسن وما به من الزخارف ندرك ان الفكر قد سيطر على هذا العمل العظيم فأكسبه اعتدالاً ورونقاً عظيمين

ولا شك ان العمل العبقري لا يأتي فجأة وانما هو مرتبط بالماضي مثله كمثل الاعمال العادية وقد يتأثر بالاساليب القائمة بل ان هذا التأثر يحدث في اغلب الاحوال . ويمتاز العمل العبقري بالبساطة الى حدٍّ كبير فيحسبها الوساط الناس خالية من كل ابتكار ، وهذا خطأ ويؤيد جامع السلطان حسن صدق قولنا فقد الف المهاري بين القواعد القديمة وزجها مزجاً غلبت فيه شخصيته وهذا هو عين العبقرية . نعم وبث المهاري في الاشكال روحاً جديدة وفكرة مبتكرة فبرهن على انهُ قابض على الناصية مسيطر على اسرار المهنة مستخدم أدق الاصول الفنية

ان التوافق لعمل جديد في هذا الجامع العظيم وهو الميزة التي أضفت عليهِ جماله وعظمتهُ . وقد تمَّ اللحن الموسيقي وخلص للفنان الذي لم يعتمد على نغمات محدودة فحسب وانما اعتمد على ما التأليف الموسيقي من سحر فارتفع باللحن فوق المستوى العادي وانك ان تجد فيهِ اي لون صارخ تشمئز منهُ النفس . بل الالوان كلها متدرجة متآلفة في رفق والعناصر الزخرفية هادئة والجزء خاضع للكل وكأن جمال الزخرفة نشيد لحنهُ الفنان في عناية ودقة وشعور ستلهماً جميع النغمات . وقد وفق آرثر رونيه اذ قال « ان العبقرية هي التي أتاحت لصاحبها السيطرة على الاشكال التقليدية او الهندسية فبثَّ فيها روحاً من عنده فلكل زخرفة في جامع السلطان حسن طابع خاص يمتاز بهِ عن سواها من زخارف الابنية الاخرى »

بلغ المهاري الثروة الفنية وأدرك معنى الكل ادراكاً كاملاً فاهتم بهِ وابرز بناءه وكان اهتمامه بالجزئيات دون ذلك بكثير . فمن الخطأ القول ان الذوق المهاري لم يتكون عند الفنانين المسلمين . وليس يكفي جهلهم بأساليب الفنون القديمة لانكار نبوغهم

والفنان في هذا الجامع لم يوجه همه الى الزخرفة كعامل جوهري في العمارة بل اتجه فيها رسيطر عليها وأخضعها للكل فأدت اغراضها . وقد يكون هذا الجامع هو الوحيد بين جوامع القاهرة الذي يجمع بين قوة البناء وعظمته ورقة الزخرفة وجمالها . وأثره قوي في نفوسنا اذ له خصائصه التي لا يشترك معهُ فيها غيره . ان جامع السلطان حسن هو العمل العظيم في الاسلام الذي روعي في تشييده متانة البناء فهو كالمعابد القديمة يتحدى الزمن ويطبق عليهِ ما تحيه شاعر عربي من ان الزمن هو الذي يقاوم قوة هذه المباني الضخمة . ولا ريب في ان هذا البناء العالمي الشهرة والعظيم القيمة رمز لمجد الاسلام وقوته . وعظمته مقررة معترف بها فاذا قلنا « السلطان

حسن » فهذا كاف للدلالة على البناء كما نقول « بورج » و « شارتر » للدلالة على الكاتدرائيتين الخالدتين. وقد اختفى السلطان حسن وكأنه لم يكن وظل مسجده قائماً . وإذا تذكرنا أن حسن تفهُّم العمائر الاسلامية يتطلب أن يكون المرء ملمًّا ببعض القواعد عرفنا فضل عمائر السلطان حسن فانهُ لا يتطلب منا تأملاً عميقاً والزوَّار الذين يتأثرون بالفن ليسوا بحاجة الى ترجمان ولا الى لغة اخرى غير لغة المعاليك او لغة الاسلام . نعم وليسوا بحاجة الى كلمات يستعينون بها على تفهمه والاحساس بقوته . بل ان السائح الذي تضاءل احساسه بالفن يحس امام مسجد السلطان حسن بقوة العمارة احساساً قويًّا . فهو يتأثر دون شك بعلوه الشاهق تأثراً فجائيًّا ثم تأخذ العين ما بين الابعاد من تناسب عجيب تنتقل من القوة الى الرقة

وقد استطاع المعماري المشبع بالافكار النبيلة القوية أن ينفذ تصميم البناء تنفيذاً دقيقاً في بساطة وروعة ، فالجامع يطغى بقوته على حواسنا ثم يكشف لنا عن عظمة الاسلام وما ينطوي عليه من بأس وقوة. وجمال هذا البناء ينبعث من كون جميع أجزائه خاضعة خضوعاً مناسباً متسقاً لفكرة عامة. هذا البناء القوي الذي تتمثل فيه الجرأة والقوة يسوده هدوء عظيم كما يمثل شرف الفكرة الاسلامية الشامخة

***

ونود ان نتفهم الاسباب الدفينة التي حملتنا على التأثر الى هذا الحد :

البناء يتجلى لنا ذا حيوية عميقة هي في غنى عن الناس ولا شأن لها بهم . ولكنا ندرك على شأنه ورفيع مقامه ازددنا به اعجاباً ولا غرو فالانسجام من خصائصه وأثره في النفس أجمل ما يكون. على ان خير ما يعين على تفهم قوة هذا المسجد هو التردد عليه والتأنس به والنظر اليه وحينئذ يكشف لنا عن جمال مدهش وعظمة غالبة ونشيد مبهج . وهو مثال فخم يبهر البصر يدل على روح النظام في وقت كانت الفوضى منتشرة والمعارك دموية . ومن مخبرة القاسية ان نجهل اسم خالق هذا العمل العظيم ونحاول له جهلين بقاء الاثر خالداً على الازمان .

لم يكن يصل الى مرتبة السلطان الأمن كان في الاصل من الارقاء الذين كانوا يباعون بأبخس الاثمان فاذا ما نالوا حريتهم على يد أسيادهم الذين كانوا ارقاء من قبلهم تكونت شخصياتهم واتخذوا اسماء جديدة وبذلوا الجهد في العمل على تكوين عظمة الذين ادعوا لهم الحق في تكوين ثروة طائلة ، ولم تكن هذه الثروة تأتيهم الا من الفلاحين الذين كانوا يقومون بزراعة الارض ولكن لم يكن يعرف صاحبها ولا انتابت الدهشة احداً منهم . وكذلك جامع السلطان حسن فهو عمل عظيم خالد ولكن شخصية الفنان الذي بنى هذا الصرح الفخم ظلت مجهولة

ومهما يكن من شيء فاننا اجدرنا بألا نعرف عن خالق العمل البشري شيئاً . قد رأينا في عصرنا هذا ميل الكتاب الى تحليل حياة الفنان الشخصية والوقوف على . . . في سبيل البرهنة والخروج من ذلك بنظرية لا تتفق في شيء والعبقرية التي تتجلى في أعمالهم . وهل نحس بالمزور

حقًّا على ما في ذلك من سوء الخلق وخبث الطوية اذا عرفنا ان المعماري الذي بنى جامع السلطان حسن كان مضطرًّا للحصول على الرزق الى القيام بأعمال عادية ليس فيها أثر للشخصية ، ثم ترتب على هذه المقدمات نتائج قد تكون قاسية كل القسوة . انه ليجمل بعظمة الاسلام ان تظل شخصية الفنان العبقري الذي شيد هذا الجامع محوطة بالغموض كالشعر الخالد القديم في الالياذة والاوديسة

وقد يكون في وصف الجامع وصفاً مسهباً ما يدعو الى السآمة والملل بالرغم من ان الجزئيات تشترك في ابراز الكليات . ولكن هذا الاثر بحاجة الى قلم بليغ وأسلوب شاعري حتى يمكن ابراز قائمه وجزئياته حتى لا يكون ما يراه القارىء قاصراً على هذه الجزئيات فحسب وان كانت بعض هذه الجزئيات غاية في الطرافة والابتكار وكأنها بيوت شعر من قصيدة عصماء

قال ايرس « ان كل ما تراه في الجامع مركب في مكانه تركيباً هادئاً منسجماً فاذا أمعنت النظر في زخارف ايوان القبلة وقاعة القبر جزءاً جزءاً أحسست احساس الرضى، فهناك ثروة فنية وأشكال رشيقة بديعة تتكرر في انتظام وانك لتحاول ان تفهم مدلول الكلمات والآيات القرآنية المندمجة في الزخارف العربية وهي في حد ذاتها زخرفة ممتازة فتبهر نظرك بجمال زخرفها وتملك وتصحك بجميل عباراتها . »

وإنا لنحلل ذلك المكان الذي كانت تشغله المصابيح ذات الالوان المتباينة وكان لها المرتشى بزيته نوراً وحيوية ، فنتأمله اليوم في خشوع وتذكر والتأثر يملأ جوانحنا عظمة المكان الذي انطفأ نوره . تلك المصابيح المموهة بالميناء رآها بعض السياح في مكانها قبل ان تنتقل الى دار الآثار العربية وانا نترك الكلمة لهؤلاء الذين شاهدوا الجامع وعلى الخصوص لهؤلاء الذين [illegible] فقد كتب جوانز في كتاب وصف مصر ما يأتي : انه من أجمل مباني القاهرة في الاسلام ويستحق أن يكون في الرتبة الاولى من مراتب العمارة العربية بفضل فيه [illegible] وعظم اتساعه وفخامة رخامه وكثرة زخارفه التي تكسو الارضية والحيطان [illegible] وضخامة بسيطة خاصة بهذه العمارة كما أن حشوات الخشب والبرونز التي تكسو الابواب [illegible] فنية!

[illegible] فقد اختزل النهاية عنه اختزالاً يقرب من الاشارات البرقية ولا يعطينا فكرة صحيحة عنه فقد كتب : « ... دخل مستديرة تقرنصاته . جبال من [illegible] أنا نقرن من أكياب من [illegible] »

[illegible] فقد تحدث عن موضوعه بأسلوب جاف أيضاً : « أثر عجيب فسيح وحديد في القاهرة يستحق ان يدرس من أجل مباني العصور الذهبية »

أما المصور لينوير فقد كتب عن مصر كتاباً تختلف جزاؤه في قوتها وأسلوبها والصفحة التي خصصها للسلطان حسن تستحق ان تذكر . « ان جامع السلطان حسن المملوكي يشرف على القاهرة كلها وأسلوب بنائه من أرقى الاساليب المعمارية ، ومساحته عظيمة ولذا يعد أجمل جامع في الشرق كله بلا نزاع . وموقعه تجاه القلعة والدخول اليه من باب عال بارتفاع الاثر كله مفتوح على شارع جانبي يوصل الى الميدان . حيطانه رخام من جميع الالوان مرتبط بعضه ببعض بحليات على شكل وردات وزخارف من برونز قيدو هذا الباب الرئيسي وشيقاً . وينتهي اعلاه في شكل تجويف فيه ثلاث من المقرنصات تأخذ في الثلة حتى تختفي عند منتصف ارتفاعه . وهنا تمتد الواح من الخشب متداداً افقياً وتحمل مصابيح من الزجاج المموه باللبنا وعدداً من بيض النعام المحلى بالزخارف . يصعد المرء بضع درجات ثم يزل درجات اخرى فيجد نفسه في دهليز عظيم مزين بمقاعد حجرية على الجانبين . ان هذا الدهليز الغامض يجعل المنظر العجيب الذي ينكشف أمام الناظر فجأة اشد وقعاً في النفس : صحن عظيم على شكل صليب يوناني في وسطه بناء عربي أجمل ما يكون يقوم على أعمدة من الرخام وتغطيه قبة محلاة بزخارف باهرة . وهذا البناء الثمين الاضلاع هو الميضأة . وأمام باب الدخول ايوان عظيم هو إيوان القبلة وترى ثلاثة إيوانات أخرى على جوانب الصحن . وايوان القبلة يعلو درجة واحدة فوق مستوى ارضية الصحن وفي نهايته سلاسل متدلاة معلقة بها آلاف من المصابيح كانها نازلة من السماء وتبدو من بعيد كانها نطرات من المطر او كانها شبكة معلقة في الفضاء . وفي نهاية ايوان القبلة المحراب المزخرف زخرفة فنية تضم بأنواع المواد الثمينة والالوان والزخارف الشرقية . اما المنبر فهو من ابدع التحف الخشبية ذات الزخارف المحفورة »

ترى جيرول ان أجمل بناء في القاهرة هو جامع السلطان حسن الذي يمتاز بجمال البناء فقد كتب « ان قبته العظيمة ومنارته القوية وحيطانه الدارية العالية الفنية بكل تفاصيلها تكون مجموعة تستحق النظر بشكلها العظيم . ان باب الجامع المنفرد الذي يعد اكمل التحف المعمارية . عقوده ساحق يتناسب مع اتساعه ويعلوه اعلى قبة مقسمة على هيئة مقرنصات في تجويف [illegible] ان القبة صما زخارف ذات خطوط هندسية او مزخرفة بتجاويف ذات أعمدة صغيرة دقيقة . وداخل [illegible] أعظم تحف الصحن ما فيه من ميضأة محاط بعقود توصل الى ايوان القبلة . كتابات كوفية [illegible] في الحائط مكونة من حروف حجمها غير عادي ملتف عليها فروع نباتية . ثم يدخل [illegible] حجرة الخزنة وهذه تبدو اكثر ارتفاعاً من قبة الباتيون وأرقى وأرسخ من عناصر [illegible] وكتاباتها مفترشة على الواح خشبية . ان الاثر الذي يحدثه جامع السلطان حسن في النفس هو

من نوع الاثر الذي نحسهُ ونحن في أجل كاتدرائياتنا . ولم تتجلَّ الفكرة الدينية بمثل هذه القوة وهذه الحظوة في أي اثر آخر انساني سواه

وانا نورد قول الدوق دافركور وهو اقل المعاصرين معرفة بمصر بل انه ليشعر بأنه لم يكن دائماً منصفاً كل الانصاف . نورد ما كتبهُ عن السلطان حسن لان شعوره هو شعور الاكثرين الذي ما كان يود ان يرى عملاً فنيًّا جميلاً وكأنه بوصفه يقصد الى تشويه الصورة الجميلة لا الى التحمس في ابراز محاسنها . قال :

« ان جامع السلطان حسن يدهشنا قبل كل شيء بأبعاده العظيمة الجميلة وهو يكاد يكون خالياً من الزخارف والقليل الذي فيه لا يبدو منقولاً عن الزخارف اليونانية واللاتينية والقوطية. ان الذي بناه قاصد بناءه يبغي غايات خاصة ويبحث عن الجمال في نواح لم تطرقها آثار تلك العصور ونجد فيه في نفس الوقت أشكالاً كثيرة معقدة وزخارف غريبة والتناسب فيه منعدم فبعض أبوابه قد تبدو ضخمة عظيمة ولكنها ليست كذلك الى أخرى صغيرة واطئة وهذا يدل على ما يظهر على شعب حر الى العلم أقرب منهُ الى السذاجة والفن فيه على كل حال فن مبتكر أصيل ولا يخلو من المزايا»

وقد كتب جريفز ان المنافسات الدموية بين المماليك كانت عاملاً على كثرة اتاحتهم لجامع السلطان حسن على عظمته قد بني في فترة كانت السلطة العليا مفقودة ، بناه طامع في الحكم منكر لهُ يناضل نائبهُ المسيطر على القلعة وهو مع ذلك لم يجد صعوبة في اقامة عمل عظيم وان يبني جامعاً يكاد يكون قلعة حصينة »

ويستمر جريفز سوقاً على أجنحة الخيال . ولكن اذا صرفنا النظر عن الحقيقة التاريخية فان ملاحظاته ذات دقة وعمق . وقد دون مؤرخ في مذكراته عن أحد كبار وزراء الدولة الفاطمية انه عهد اليه الخليفة قبل وفاته بقليل ان يبني له قصراً فقال في وصيته السياسية ان من بين القلاع الثلاث التي ارتكبها انه بنى جامعاً خارج باب زويلة يمكن ان يكون نقطة ارتكاز لمن يغير على القاهرة او يداهم عليها . والمقصود هو جامع الصالح طلائع المشيد بالقرب من باب النصر وقد كان يمكن ان يكون حصناً حربيًّا كجامع الوزير لو لم تتسع القاهرة وتصير الاسوار الفاطمية عديمة القيمة . وقد ارتكب السلطان حسن نفس الخطأ . ان الحكومات الاسلامية كانت حكومات أرستقراطية وقد قبلت الشعوب حكومة السلطة هذه . وعلى ذلك فلم نجد في التاريخ الاسلامي ما يمكن ان يقارن على وجه الخصوص بالنزاع بين البرلمان وبين الملكية في فرنسا

ولو كانت الكتلة البابية او الشعبية موجودة في القاهرة في ذلك الوقت لكان جامع السلطان حسن القائم تجاه مقر الحكومة بمثابة تهديد للحكومة . وعلى كل حال كان وجوده مثل هذا الى أيام الجمهورية مصدر خطر دائم

وقد كان الرحالة ابون الافريقي أول من نبه الى وجود بناء من الابنية مشهور جداً ، هو جامع السلطان حسن الذي رفعهُ بانيهِ الى علو شاهق فصار حصناً يحتمي فيهِ المماليك لصد هجمات خصومهم على بعض

وقد ذكر هذه الحقيقة كذلك شارل توماسون الانجليزي ، قال : ان الجامع الذي يبدو متفوقاً على الابنية الاخرى بأدته ومظهره الفخم المدهش ، هو جامع السلطان حسن الواقع على سفح الجبل الذي يشرف عليه حصن القلعة . يرتفع الجامع ارتفاعاً شاهقاً ويعلوه كورنيش جميل بارز بروزاً شديد ومحلى بنقوش غربية . ومساحته مستطيلة ومدخله محلى بالرخام الثمين المختلف الالوان وكذلك على الباب . والدرج الذي كان موصلاً للباب قد تهدم والباب نفسه مسدود اذ كان ملجأ للساخطين اثناء الثورات »

ان الفصل مايه الذي اثر عنه « فورسون » حرفاً بحرف دون دمة رأى ذلك ايضاً اذ انه اورد في كتابه : « بالقاهرة جامع قديم فسيح ومرتفع جداً ولا يفصلهُ عن سفح الجبل القائم عليه القصر الا ميدان فروش بالرمل اتساعه مائة وخمسون قدماً وطوله الف قدم تقريباً وكان هذا الجامع ضاراً في زمن الثورات لان الساخطين كان في امكانهم بضربات السهام ان يحولوا في سهولة دون انصال جناحي القصر احدهما بالآخر وكان يمكن لرجال القصر من اجتهم ان يطردوا الثائرين بابلاً من الحجارة من قمة الجبل التي تشرف على الميدان كله . كانت اقامة بناء ضخم تجاه القوات الحربية السلطانية غلطة سياسية . وقد كتب مؤرخ عربي ان هذا الجامع يقوم تجاه القلعة وما كانت تقوم ثورة الا احتمى الثوار في أعلى بنائهِ وأمطروا حماة القلعة وابلاً من المقذوفات وفي غضون سنة ١٣٩٠ لاقى السلطان برقوق صعاباً شديدة في التغلب على الثوار الذين [illegible] وكان هذا السلطان قد خصصهُ قبل تلك الثورة بمئتين مجرة لحراسته ، فلما رأى ما صار اليه امر الثورة امر بهدم الدرج الذي يوصل الى المنارتين وقفل الغرف التي كانت مخصصة لسكنى الاساقفة وهدم سلم الباب العمومي كما سدَّ الباب الخفي وبذا صار الوصول الى الجامع عن طريق نافذة صغيرة تجاه القلعة كان من السهل سدها عند الثورات. [illegible] للجامع يدعو المؤمنين الى الصلاة

وقد نهب الجامع سنة ١٣٩٩ أثناء ثورة اخرى وبني درج المأذنتين من جديد كما يؤخذ من القصص . وفي سنة ١٤٠٤ بنيت على سطح الجامع أنابيب لقذف القنابل على القلعة . وقامت الحكومة نفسها سنة ١٤١٠ بتحصين الجامع مخافة الاضطرابات ولكن الثوار تمكنوا من الاستيلاء عليهِ بالقوة بعد معركة شديدة واستعملوه في الثورة مركزاً للمقاومة ، ثم جدد الدرج كله سنة ١٤٣٦

وفي سنة ١٤٣٨ استولى بعض المماليك على الجامع وحرقوا بابه وتحصنوا على السطح فلما جاء المدد من السلطان تهدم درج المأذنة ثانية

وكتب مؤرخ عربي انه في سنة ١٤٩٤ أمر السلطان المهندسين بفحص المنارة جنوبي الجامع اذ كانت تنذر بالسقوط على ما كانوا يؤكدون . ولكن هذه الاشاعة تلاشت عند التحقيق الدقيق ومع ذلك فقد لاحظ المهندسون ان قمة المنارة قد تهدمت وان الهلال الذي كان يعلوها قد أصابه الخطب ، وذلك من جراء المقذوفات على الجامع أثناء الاضطرابات . فاكتفى بازالة الهلال . وكان هذا الفصل في الحقيقة أسوأ بكثير من هدم المنارة وختم هذا المؤرخ حديثه بأن هذا البناء احدى العجائب العالم وبانهُ اجمل بناء في الاسلام

كان السلطان جانبرد في نهاية عام ١٥٠٠ مهدداً في سلطته فتكرفي الاحتماء بالقلعة وامر بهدم الجامع تجنباً للخطر فسرع العمال ينفذون أمره وظلوا ثلاثة ايام احدثوا فيها بالجامع اضراراً بسيطة وكان الرأي العام قد هاج فاضطر السلطان الى العدول . وهكذا كانت الاوساط البعيدة عن السياسة تهتم دائماً بآثارهم الثمينة . ثم كان ادخال المدفعية ضاراً بالبناء كل الضرر اذ كتب تيفينو سنة ١٦٥٧ يقول « احتمى طومان باي وهو آخر سلاطين المماليك في هذا الجامع تاركاً القلعة للسلطان سليم الذي امر باطلاق المقابل على الجامع ولا تزال الثقوب تشاهد حتى اليوم خصوصاً في القبة »

ولنلاحظ حالة القبة السيئة دون الرقوف عند الحقيقة التاريخية فقد سقطت بعد تلك الحوادث بثلاث سنين وحلت محلها قبة اخرى هي التي نراها اليوم ، والدعامات التي تستند اليها من الطراز العثماني . وكانت المنارة الشمالية تهدمت قبل ذلك بسنة واحدة فبنيت محلها منارة اخرى ذات حجم أصغر

وحدث في القرن الثاني عشر من الحوادث ما اضر بهذا الجامع كذلك . وقد روى بول لوكاس الذي كان يقوم برحلته الثالثة سنة ١٧١٦ ما يأتي : « هزم امير جرجا عرب الصعيد ثلاث مرات اذ وقفوا في طريقه وهاجموه ثم عاد الى القاهرة . وكان يمكن هزم العرب هزيمة نهائية باطلاق النار اطلاقاً مستمراً من القلعة ولا الخوف من ارباك رجل التي ارسلها الدفتردار تقوي ساعدهم واصطفوا على جامع السلطان حسن القريب من حيهم واحتموا فيه فكانت هذه الحيطة سبباً في استيلائهم على السلطة ثم انهم نصبوا مدفعاً في جامع السلطان حسن وصوبوه نحو امير جرجا واستمر اطلاق النار اطلاقاً شديداً اياماً عدة فلولا جامع السلطان حسن لما عرف العرب اين يحتمون . وكان احمد في قلعته واقعاً تحت ضغط النيران المنصبة من الجامع

ثم في سنة ١٧٣٦ حرق باب الجامع واستولى الثوار على البناء فاخرجوا منهُ بالقوة وهدم الباب الكبير

وكتب سافاري في سنة ١٧٧٨ يقول : من جوامع القاهرة الكثيرة ما يقوم بينها كقلاع. ففيها جامع السلطان حسن الذي كان الثوار يحتمون فيه في وقت الاضطرابات ويتحربون الفسحة بالمداخل من فتحه . وهذا البناء الكبير بكوربشه المنقوش نقشاً غريباً والبارز بروزاً عظيماً ، تعلوه قبة عظيمة ، وواجهته محلاة بالرخام الثمين . والابواب الثلاثة مسدودة وما حولها من الاماكن يحرصون دون الاقتراب منه

وانتهت هذه الحال سنة ١٧٨٦ كما قال الجبرتي :

« استصحى الحال فتح باب هذا الجامع الذي كان مغلقاً وهدمت الدكاكين التي اقيمت تحت صدر الباب وكذلك الحائط الذي اقيم سداً ثم بني باب من حديد ودرج للوصول اليه ومقاعد من الحجر »

وقد نفى آرثر رونيه الذي كان محبًّا للجامع حبًّا كثيراً موقعه المعرض للخطر ومن ثم تقلقل ولكننا نقرأ ما كتب عنهُ فنراه يميل كل الميل الى وصف تلك الفترة من الزمن وصفاً جميلاً بعيداً كل البعد عن الحقائق التاريخية إذ يقول كانت السطوح والشرفات ملجأ الساخطين والثوار الذين قاوموا حامية قلعة الجبل منذ خمسة قرون سواء أكان الحاكم سلطاناً من سلاطين المماليك ام والياً من قبل الباب العالي او القائد بونابرت ، ثم يردف هذا بقوله « كان النزع الاكثر عندما كان ثائرون في اشد حالات الغضب وذلك في ثورة ٢٨ اكتوبر سنة ١٧٩٨ ، ولا تزال الحيطان تحمل آثار طلقات الفرنسويين »

ولم يصب المؤلف في كل كلمة من كلماته هذه بل جوزف Joseph وقع خطأ في التاريخ وكان الواجب يذكرونه على الدوام بل ان بعض الكتاب لم يجدوا أية غضاضة في نشره من حين لآخر . ولم الكاتب كامي موكلير وهو آخر من كتب ذلك . غير ان الاستاذ جاك ماري كاربه يصحح هذا الخطأ ومن السهل ان نقرأ حوادث ذلك اليوم المحزن الذي قامت فيه الثورة ونحن نرجع على الفور الى ما كتبه الجبرتي الذي كان يتتبع الفرص بصبر عما يكتبه في تلبية من البغضاء للفرنسيين وهو شعور طبيعي جدًّا ، والى القارىء ما كتب : « وجَّه الفرنسيون مدافعهم الى جهات الازهر وبيوت الاحياء المجاورة » وهذا ما يؤسف له بالطبع ولكننا نريد ان نثبت بونابرت لم يتح لهُ ان يضرب جامع السلطان حسن بالمدافع

وقد اطلق الكاتب هـ دي نوجاني لخياله العنان فوقع في عدة اخطاء وأحسَّ بالحاجة الى ان يضفي على هذا الجامع لوناً رواثيًّا فكتب : « كان السلطان يجتمع بشعبه في هذا الصحن

الفسيح الذي يتمرد النور ثم يلقد أوامره . وكان الشعب يضع هامته على الرخام عند نزول السلطان من على المنبر متجهاً نحو أزهرات حيث كان الحرس قائماً بالحراسة ، وكان لأصوات سنكات الحرس الثقيلة رنين عبر الرخام . واستعمى الفرنسيون فيه أثناء ثورة القاهرة في ٢١ اكتوبر ١٧٩٨ »

فالفصل الأول من هذه الرواية كالروايات اليومية التي نقرؤها ومثله كمثل ما جاء في دليل بديكر الذي رأى محرره رخام الصحن ملوثاً بدم يقال انها دم المماليك المذبوحين

أما ما كتبهُ جابريل هانوتو فيعتبر بمثابة خاتمة للموضوع : «ها هو الجامع الذي يفوق كل ما عداه من الجوامع الأخرى ولا مفر من التسليم بتفوقه . نحن في فترة من فترات الرضى التاريخية ، ولكن ما أعجب التباين بين الرضى وبين النفس التي بلغ السماكين فخامة ونظاماً ! فما الذي يحمله من معنى وما الذي يعبر عنهُ من شعور أشكوى لله من نظام قديم قد انطفأ نوره أم نشيد الانتصار لنظام جديد قد انبثق فجره ومهما يكن من أمر فإن الوحي والفن قد بلغا الذروة . وأني لا اعتقد ان الاسلام قد بلغ في مجال انتصاراته القيمة ما هو أبدع من السلطان حسن »

أما الفاعة المربعة التي تعلوها القبة فهي من العجائب . اما لا ندري ما العظمة التي تستولي على هذه الفاعة الجامعة بين أمرين عظيمين متضادين : الثروة الزخرفية والهدوء الذي يشمل المكان » . إن مطالب الحياة الحديثة قد حكمت على السلطان حسن بالنفي : فهو غير معروف للزائرين الذين تجذبهم الاحياء الاكثر ازدحاماً وضجة . وقد استرعى انتباهنا ذلك الهدوء الذي يبدو كأنهُ مقصود من البداية . وفي مصر التي لا تعد فيها الآثار ولا تحصى كثرة تجد جامع السلطان حسن وحيداً منزوياً وهو رغم هذا كله لا يزال من اجمل المباني الاسلامية طرًّا

***

وليس من العبث ان يتوجه المرء خصيصاً لزيارته والاعجاب به فزيارته مثروة دائماً بالخشوع والادراك وهو ليس بحاجة الى ترجمان يشرحه ويعبر عن جماله وحسنه الفائق وحسبه ان يشاهد فيدرك بداهة الجمال . هذا الجامع الذي تنشأ الروائع الفنية والمعمارية لتذكرنا من غير شك بفترات من التاريخ فيها من المآسي ما يدمي الفؤاد ولا سيما تلك الايام المضطربة التي كان يرفع فيها هامته نحو السماء فالثورات والانقلابات السياسية في ذلك الوقت كانت تحدث والشعب هادىء يتحمل في صبر عامل في سلام وصمت . وليس من العبث ان نتأمل هذا الجامع ونعجب بذلك الزمن الخالي الذي بلغ أقصى درجات الخصب والغنى ولنحيي اولئك الفنانين البسطاء الذين لم يكسبوا المعارك وانما عملوا على بث روح الجمال في الاشياء